

دور الجيوش النوميديّة في الحرب البونوية الثانية (218-202 ق.م)

The Role of the Numidian Armies in the Second Punic War (218-202 BC)

يفصح نادية ^{ID}

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر

nadia.yefsah@univ-alger2.dz

الملخص:

تناولت هذه الدراسة الجيوش النوميديّة ودورها في الحرب البونوية الثانية الممتدة من 218 الى 202 ق. م، والتي دارت بين القوات القرطاجية بقيادة حنبعل بن هاملكار برقة، والقوات الرومانية بقيادة بولبيوس كورنيليوس سكيبيو (Publius Cornelius Scipio)، بهدف ضرب القرطاجيين في عقر دارهم وإزاحتهم من منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط التي كانت محل أنظار الامبراطورية الرومانية، كما نسعى إلى الكشف عن كيفية استمالة الرومان والقرطاجيين الطرف النوميدي في هذا الصراع، لينضم سيفاكس الى الجانب القرطاجي، ويتحالف ماسينيسا بجيشه مع الرومان، ويخوض معهم هذه الحرب، وينقلب بذلك على القرطاجيين بعد أن حارب الى جانبهم في اسبانيا، ومن هنا تنبثق اشكاليتنا حول كيفية مساهمة الجيوش النوميديّة، ودورها في تغيير مسار الحرب البونوية الثانية؟ وتركيبته وخصائصه؟

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي في نقل أحداث هذه الحرب وتفصيلها، والتحليلي، في استعراض وتحليل أسباب مشاركة النوميدي ودور جيوشهم في هذه الحرب، علاوة الى تناولنا فيها الوضع العام لمملكة نوميديا، والأساليب التي اعتمدها القائد الروماني سكيبيو لإقحام ماسينيسا -ملك نوميديا الشرقية- وجيوشه في هذا الصراع، ودوافع انحياز سيفاكس -ملك نوميديا الغربية- الى جانب قرطاج، كما سلطنا الضوء على تركيبة وخصائص جيش النوميدي وجاهزيته ودوره أثناء الحرب وبعدها. ولمعالجة هذا الموضوع اعتمدنا على مصادر أولية للمؤرخين اللاتين على رأسهم نص بوليبيوس الذي يعتبر مصدرا أساسيا، ولكن يعاب عليه انحيازه الكامل لروما في التبريرات التي قدمها لأعمال التخريبية الشنيعة مؤيدا عمل الإبادة لكل عنصر يظهر العداء للرومان، بينما كان تيتوس ليفيوس (Titus Livius) في كتابه "التاريخ الروماني" أكثر تفصيل بنقله معلومات مهمة عن الحروب البونوية، أما عن كتابات المحدثين فعندنا الى ستيفان قزال (Stephane Gsell) في كتابه الموسوم "تاريخ شمال افريقيا القديم"، الذي تناول فيه حيثيات الحروب البونوية. كما استعنا بالأعمال الأكاديمية وأهمها رسالتي دكتوراه الباحثتين باحمان حسيبة، ونادية يفصح، المعنوتين كالتالي (الخطط العسكرية للمقومات النوميديّة، والمظاهر الحضارية في نوميديا، اللتين قدمت لنا الأولى معلومات حول الجانب العسكري ومقاومة النوميدي للغزاة، بينما الثانية استفدنا منها في الجانب السياسي خاصة.

توصلنا في نتائج هذه الدراسة الى أن القرطاجيين والرومانيين ساهموا كثيرا في اذكاء نار الفتنة بين النوميديين الشرقيين بزعامة ماسينيسا، والغربيين بزعامة سيفاكس، تحولت الى صراع دموي بعد تدخل هذه التأثيرات الخارجية، لتي عملت على توسيع شق الخلاف بين الملوك المحليين، خدمة لأهدافهم ومصالحهم في شمال افريقيا، وقد تبين مما جاء في بعض المصادر الكلاسيكية أن الجيوش النوميديّة كان لها دورا مهما في حرب حنبعل، إن لم نقل حاسما خاصة في مرحلتها الأخيرة، وكان لجنود ماسينيسا الفضل في تغيير مجرى الحرب لصالح الرومان وتحقيق انتصارات في معارك

السهول الكبرى وكرطا وزاما الفاصلة، وفي الأخر اعتمدت الجيوش النوميدية بعد الحروب البونية -في عهدي الملكين يوغرطة ويوبا الأول - على استراتيجيات وتكتيكات حرب جديدة ضد العدو الروماني، مكنتهم من الانتصار والتفوق، لولا لجوء هؤلاء الى أسلوب الاغراءات والخيانة الذي اشتهروا به.

الكلمات المفتاحية: الجيش؛ النوميد؛ الحرب البونية الثانية؛ قرطاج؛ روما.

Abstract

In this article, we focus on highlighting the role of the Numidian armies in the Second Punic War. This war was fought between the Carthaginian and Roman forces. Scipio, the Roman leader, decided to shift the war from Italy to North Africa in order to strike the Carthaginians and remove them from the western Mediterranean basin. We also aim to explore how both the Romans and the Carthaginians sought to win the support of the Numidians, who initially had no interest in the conflict. This resulted in the alliance of Syphax, King of Western Numidia, with the Carthaginians, and the alliance of Massinissa, King of Eastern Numidia, with the Romans. From this emerges the question: how did the Numidian armies contribute to changing the course of the Second Punic War? What was their role, composition, and military character?

In this study, we relied on the descriptive historical method to convey the events and details of the war, and the analytical historical method to analyze the reasons behind the participation of the Numidians and the role of their armies. We highlighted the general situation of the Kingdom of Numidia and the methods adopted by the Romans to involve the Numidians in the conflict, as well as their various alliances. We also discussed the composition, characteristics, and role of the Numidian army during and after the war.

To address this topic, we relied on primary sources from ancient historians, among them the text of Polybius, which is considered a fundamental source. However, it has been criticized for its clear bias toward Rome, particularly in its justification of horrific acts of destruction. On the other hand, Titus Livius (Livy) provided more detailed and valuable information on the Punic War. As for modern writings, we referred to Stéphane Gsell in his book *History of Ancient North Africa*, in which he addressed the context of the Punic Wars. We also relied on academic works, most notably the doctoral dissertations of researchers Hassiba Bahmane and Nadia Yefsah.

From our findings, we concluded that the Carthaginians and Romans contributed to inciting strife among the Numidians, which escalated into bloody conflict following the intervention of external forces seeking to exploit local rivalries to serve their own interests in North Africa. Classical sources reveal that the Numidian armies played an important—if not decisive—role in Hannibal's war, particularly in its final stages. Massinissa's soldiers were credited with shifting the outcome of the war in favor of the Romans, securing key victories in the battles of the Great Plains, Cirta, and the decisive Battle of Zama. Following the Punic Wars, during the reigns of King Jugurtha and King Juba I, the Numidian armies employed new strategies and tactics against the Roman enemy. These innovations might have led to their victory and military superiority, had it not been for the Romans' use of bribery and betrayal—tactics for which they were well known.

Key words: Army; Numidians; Second Punic War; Carthage; Rome.

المؤلف المرسل: يفصح نادبة، الإيميل: nadia.yefsah@univ-alger2.dz

مقدمة

بعد استكمال الرومان توسعهم في شبه جزيرة إيطاليا خلال القرن الثالث قبل الميلاد وجهوا أنظارهم نحو المياه المتوسطية، وكانت قرطاج حينذاك سيدة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وبالتالي حاجزا أمام طموحات الرومان في شمال افريقيا، هذا ما دفع هؤلاء الى خوض سلسلة من المعارك، امتدت على ثلاث مراحل كبرى تخللتها فترات هدنة، عُرفت في التاريخ القديم بالحروب البونية التي وقعت فيما بين 264 الى 146 ق.م، كان الانتصار فيها لصالح الرومان.

أمام هذا الصراع طففت الى المعادلة قوة ذات وزن يحسب لها ألف حساب وهي "قوة الجيش النوميدي" التي ما فتئت تصنع الاستثناء في الحرب البونية الثانية، وتعد هذه الحرب من المواضيع الجديرة بالاهتمام والبحث، كونه جزء مهم من التاريخ السياسي والعسكري لمنطقة شمال افريقيا بشكل عام، ومملكة نوميديا بشكل خاص. فلقد سعى الرومان إثر الانتصارات التي حققها القائد القرطاجي حنبعل¹ في المعارك التي خاضها ضدهم في ايطاليا، خاصة في معركة كاناي (Cannae) عام 216 ق.م، الى إيقاف زحف حنبعل بكل الوسائل، بدءاً باجتناح الاشتباك معه في معارك منظمة، ومحاولة منع وصول المؤونة والمساعدات التي كانت تأتيه من حلفائه، وصولاً الى فكرة نقل الحرب من ايطاليا الى شمال افريقيا، هذه الفكرة التي جسدها القائد الروماني سكيبيو بعد تحالفه مع ماسينيسا²، واقحام النوميديين في هذا الصراع القرطاجي الروماني.

لقد ركزت النصوص القديمة مثل نص بوليبيوس (Polybius) الذي يعتبر مصدرا أساسيا لهذه الأحداث، والمؤرخين الذين جاءوا من بعده على دراسة تفاصيل الحروب البونية في مراحلها الثلاث، مركزة على أسبابها وتداعياتها ونتائجها على القرطاجيين والرومان، لكنها أهملت طرفاً مهماً كان قد أقحم في هذا

¹ حنبعل، الابن الأكبر لهملقار برقة، من عائلة قرطاجية عريقة، قاد الجيش القرطاجية منذ سن السادسة والعشرين من عمره، بسط نفوذه على شبه الجزيرة الإيبيرية منذ عام 221 ق.م، هاجم الرومان من الشمال عبر جبال الألب والبيرين، حقق عليهم انتصارات في عدة معارك، لكنه انهزم فيما بعد على يد القائد الروماني سكيبيو، لمزيد من المعلومات أنظر:

Gsell, S, (1920), Histoire ancienne de l'Afrique du nord, T3, Paris, éd. Hachette, pp 133, 134.

² ماسينيسا أو م س ن س ن (MSNSN)، ولد عام 238 ق.م، والده يدعى غايا (Gaya) ملك نوميديا الشرقية، أما والدته فلا نعرف عنها شيئاً سوى أنها كانت كاهنة وتساعد ابنها في الحكم، حيث كان يستشيرها ويأخذ بنصائحها في بعض أمور المملكة، وترافقه في حروبه، تدرب ماسينيسا على ركوب الخيل والصيد منذ صغره وتعلم المبارزة ورمي الرمح مما ساعده على أن يكون فيما بعد قائدا عسكريا بارعا يحقق دائما الانتصارات على أعدائه، توفي عن عمر تناهز تسعين سنة، للمزيد من المعلومات أنظر:

Kadra-Hadjadji, H. (2014), Massinissa le grand africain, Alger, éd. Casbah, p. 49-54.

الصراع الذي لم يكن يعني له شيئاً، حيث تسابقت كل قوة الى إيجاد حليف مناسب لها ضمن الملوك النوميديين، كما أهملت معظم هذه الدراسات آثار هذه الحرب على سكان شمال افريقيا عامة، ومملكة نوميديا خاصة، ومن هنا تنبثق إشكالتنا فيما هو دور الجيوش النوميديية في الحرب البونية الثانية؟ وما من ذلك يمكن أن نذيل إشكالتنا بأسئلة جزئية تتمثل فيما هي الأسباب التي دفعت كل من ماسينييسا وسيفاكس للمشاركة في الحرب؟ تركيبة الجيش النوميدي وخصائصه؟ وضعية الجيش النوميدي بعد الحرب؟

تم الاعتماد في هذا البحث على المنهج التاريخي الوصفي لتتبع الأحداث التاريخية كما نقلتها اليينا المصادر الكلاسيكية والمراجع الأساسية، وعلى المنهج التحليلي، لاستنتاج دور وأهمية الجيش النوميدي في الحرب البونية الثانية، من خلال بعض الإشارات العابرة التي جاءت في النصوص القديمة التي اهتمت بموضوع الحروب البونية وبتفاصيلها، وللإجابة عن الإشكالية المطروحة اعتمدنا على بعض المصادر اللاتينية التي عايش أصحابها هذه الأحداث كالمؤرخ الاغريقي بوليبيوس الذي أشرنا اليه سابقا، والذي احتك بشخصيات كثيرة من عائلة سكيبيو، فمجدها كثيرا في مؤلفة وصنع منهم أبطالاً، خاصة منهم سكيبيو ايمليانوس الذي رافقه في حملته على قرطاج، فكان شاهد عيان على تدمير أسوار وحرق هذه المدينة بكل سكانها من شيوخ ونساء وأطفال، ولقد أيد بوليبيوس عمل الرومان الشنيع وتحدث عن ذلك كأمر عادي، ورأى في القرطاجيين أنهم أعدائهم، وبالتالي يجب ابادتهم جميعا، بينما عاد قرينه تيتوس ليفيوس (Titus Livius)، في كتابه "التاريخ الروماني" والذي نقل فيه معلومات كثيرة عن سابقه بوليبيوس، خاصة ما يتعلق بتفاصيل الحروب البونية، فبي حين شغل موضوع الحرب البونية أيضا المحديثين نشير الى المؤرخ ستيفان قزال (Stephane Gsell) في جزئيه الثاني والثالث من كتابه الموسوم "تاريخ شمال افريقيا القديم"، الذي تناول فيه تفاصيل الحروب البونية، دون أن ننسى كتب "محمد حسين فنطر" وفرانسوا دوكري (Francois Decret) وكذلك جابريل كامبس (Gabriel Camps).

1. الوضع العام لمملكة نوميديا

إذا كانت الأصول الأولى لنوميديا مازال يكتنفها الغموض، فان النصوص القديمة تبدأ في الحديث عن المملكة ابتداء من أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، ويفهم من هذه النصوص (Strabon, Géographie, 5,33: II, 2014) أن نوميديا خلال هذه الفترة كانت مقسمة إلى قسمين: مملكة الماسيل (Massyle) أو نوميديا الشرقية وكان على رأسها الملك غايا، ومملكة المازيسيل (Masaessyle) أو نوميديا الغربية ويحكمها الملك سيفاكس (شنيطي، 1985: 18)، وخلال هذه الفترة، كانت هذه الأخيرة تتربع على مساحة هامة، تمتد حدودها حسب سترابون من نهر ملوية غربا، الى نهر تريتون شرقا (Strabon, Géographie, 5,33: II, 2014)، وإذا كانت الحدود الغربية لهذه المملكة ثابتة في عهد الملك سيفاكس، فإن الحدود الشرقية عرفت توسعات متتالية على حساب أراضي الماسيل التي كانت تغطي الشرق الجزائري وغرب تونس، إلا أن هذه الحدود كانت متغيرة ترتبط بالأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت تمر بها منطقة شمال افريقيا، وعليه فإن هذه المملكة كانت محصورة بين الأراضي القرطاجية شرقا ومملكة المازيسيل

غربا، أما فيها يخص الحدود الجنوبية فقد كانت تتوقف على قدرة الملك على مد نفوذه على قبائل الجيتول ((Decret & Fantar, 1981:100).

تعتبر أراضي نوميديا الشرقية جبلية تكتسبها غابات ملائمة لتربية المواشي، كما تمتلك الهضاب والسفوح وأراضي صالحة لزراعة الحبوب، وتدل المقابر التي كشف عنها في هذه المناطق على وجود سكان فلاحين متمسكين بالأرض أكثر من النوميديين الغربيين، فإلى جانب ملائمة الظروف الطبيعية التي ساعدت نوميديا الشرقية على تحقيق الازدهار والتطور، يمكن الإشارة كذلك إلى عامل تاريخي والمتمثل في مجاورتها لقرطاج التي تكون بلاد الماسيل قد استفادت من خبراتها (Camps, 1987 : 69-70)، لكن إذا كان عامل الجوار بين الطرفين نعمة بالنسبة للماسيليين في بعض الجوانب الحضارية، إلا أنه كان كذلك نقمة عليها بسبب النزاعات التي كانت تقوم بين الطرفين من حين لآخر نتيجة لسياسة قرطاج تجاه جيرانها والتي كانت دائما تنتهي لصالحها (Decret & Fantar, 1981:101).

كثيرا ما ساهمت قرطاج في نمو وتعميق شقة الخلاف بين المملكتين النوميديتين، خاصة بعد الحرب البونية الأولى التي خرجت منها مهزومة، وذلك باستمالة طرف إليها تارة، والانقلاب ضده تارة أخرى، هذا ما أدى فيما بعد إلى صراع دموي طويل كانت نتيجته وقوف ماسينيسا إلى جانب روما ضد قرطاج وحليفها سيفاكس (Tite Live, Histoire, 1954 :XX,48).

2. أسباب مشاركة ماسينيسا وسيفاكس في الحرب البونية الثانية

بعد وفاة الملك غايا³ عام 206 ق.م، خلفه شقيقه أزلاكن (Oezalcn)، وفي هذه الفترة كان ابنه ماسينيسا في اسبانيا على رأس الجيش النوميدي يحارب إلى جانب القرطاجيين، وبعد مدة قصيرة، توفي أزلاكن وخلفه ابنه الأكبر كابوسا (Capussa)، عملا بنظام وراثة العرش النوميدي، حيث يؤول الحكم إلى الأكبر سنا في العائلة المالكة، إلا أنّ الظروف التي عقبقت مقتل كابوسا وتنصيب شقيقه لكومازيس (Lacumaces) الذي كان أصغر سنا من ماسينيسا، أدى إلى تأزم الوضع وانقلاب هذا الأخير ضد قرطاج، بعد أن أدرك أن لها يد مع سيفاكس في هذه المؤامرة التي حيكت ضده، فقرر الانتقام من أعدائه، ولاسيما من قرطاج التي تنكرت للخدمات التي أسداها لها في اسبانيا، حيث حارب الرومان إلى جانبها لمدة ست سنوات (Tite Live, Histoire, 1954 : XXIX, 29, 30)، بينما سعت هي والملك سيفاكس⁴ لإبعاده عن الحكم.

³. غايا، هو ابن زيلصن (Zilalsan) ووالد ماسينيسا، تولى عرش نوميديا الشرقية حوالي 220 ق.م، حالف قرطاج أثناء الحرب البونية الثانية وبعث ابنه ماسينيسا على رأس جيش إلى اسبانيا، توفي عام 206 ق.م، لمزيد من المعلومات أنظر: Ferroukhi, M. (2009), Nos ancêtres les rois numides, éd. Dalimen, pp. 34- 35.

⁴- سيفاكس، ذكرته النصوص القديمة لأول مرة كملك المازيسيل ابتداء من عام 220 ق.م، لا نعرف تفاصيل كثيرة عن بداية توليه العرش نظرا لصمت المصادر حولها، برز دوره خلال الحرب البونية الثانية، حيث كان في البداية حليف القرطاجيين لينقلب ضدهم عام 213 ق.م لرغبته في استعادة إقليم من قرطاج، ليحالفهم من جديد بعد نقل الرومان الحرب إلى افريقيا، قتل عام 203 ق.م، لمزيد من المعلومات أنظر:

إثر هذه الظروف، وجد ماسينيسا في محالفة الرومان بعد أن استماله اليه سكيبيو، من يؤجج نار الحقد في قلبه وينتقم من أعدائه، ويتمكن في نفس الوقت استعادة عرش والده غايا من مغتصبه، وهكذا اتخذ الرومان من ماسينيسا جسرا يمكنهم من النزول الى أراضي أعدائهم القرطاجيين، خاصة أنهم كانوا بحاجة ماسة إلى حليف في افريقيا يضمن لهم تموين ودعم جيوشهم من جهة، ويعرفهم بالمنطقة من جهة أخرى، وهذا لتفادي الوقوع في نفس الأخطاء التي وقع فيها القائدان أغاتوكلس (Agathocle) الاغريقي وريغولوس (Regulus) الروماني من قبل، حيث انهزما أمام قرطاج عندما نقلوا الحرب الى عقر دارها، وانتهت حملتهما بالفشل، لذلك اتفق الطرفان على وضع خطة محكمة تمكنهما من الهجوم والتغلب على العدو (Decret & Fantar, Guerre, 1912 : V, 4)، وكان سكيبيو راضيا عن هذا الاتفاق لأنه كان يعرف أن ماسينيسا كان أفضل رجل بين فرسان قرطاج كلهم، وكيف لا وهو الذي حارب ضدهم في النومانس (Nuance) لمدة ست سنوات (دوكريه، 1993: 175).

بعد رسم خطة هذا المشروع في اسبانيا، غادرها كل من القائد سكيبيو وماسينيسا، فتوجه الأول الى روما للحصول على منصب القنصلية مجددا، بينما اجتاز الثاني مضيق أعمدة هرقل ليلتحق بمملكة والده المغتصبة، فنزل عند الملك الموريطاني باغا (Vaga) الذي تكفل بنقله عبر مملكة سيفاكس، بواسطة حرس مملكة نوميديا الشرقية (شنيتي، 1985: 27).

وعليه، نفهم من ذلك أن السبب الذي دفع بالملك ماسينيسا الى عقد تحالف مع الرومان لم يكن حبا في هؤلاء، أو لأسباب شخصية، مثلما ذهب بعض المؤرخين المحدثين اللذين اعتبروا قضية زواج سيفاكس من الأميرة القرطاجية سفونسبة⁵ والتي وعدت بها قرطاج ماسينيسا من قبل، سببا رئيسيا لانقلابه ضدها والتحالف مع الرومان، متجاهلين في ذلك قوة شخصية هذا الرجل الذي جعل أمر الدفاع عن عرشه ومملكة والده غايا فوق كل اعتبار، فلا يمكن لعقل واسع بحجم عقل ماسينيسا أن يتخذ قرارا حاسما تحت تأثير عاطفي (يفصح، 2018: 29).

أمام هذا الوضع الجديد، لجأ الملك سيفاكس الى عقد اتفاقية تحالف مع القرطاجيين، تنص على قرار وقوف الجيش المازيسيلي الى جانبهم في حالة تنفيذ الرومان مشروع نقل الحرب الى شمال افريقيا،

Tite-Live. (1954), Histoire Romaine, trad. Gaston Baillet, éd. Les belles lettres, Paris, XXIV, 48,4 ; Decret, F. Fantar, MH. (1981), L'Afrique du nord dans l'antiquité des origines au Ve Siècle, Paris, éd. Payot, pp.82-85.

⁵ - سفونسبة (Sophonisbe)، ابنة القائد القرطاجي صديربعل، امتازت بجمالها الفائق وبثقافتها الواسعة، كانت في البداية خطيبة ماسينيسا، لكن فيما بعد زوجها لسيفاكس لاستمالته إلى صفهم، بعد انهزام الملك سيفاكس في الحرب البونية الثانية ساعد ماسينيسا سفونسبة على الانتحار رغما عنه بمنحها كأس من السم، حتى لا تقع أسيرة في يد الرومان، لمزيد من المعلومات أنظر:

Lancel, S. (2014), l'Algérie antique de Massinissa à Saint-Augustin, Paris, éd. Places des victoires, p. 42.

وأرسل سيفاكس بعد ذلك مبعوثين للقائد الروماني سكيبيو الذي كان يعسكر في مدينة سيراكوسة (Syracuse)، يحملان إليه قرار وقوفه الى جانب القرطاجيين ضد الرومان (غانم، 1995: 65-66).

في الحقيقة أن اهتمام سيفاكس بمشاكل الحرب البونوية الثانية، وبداية التقرب من قرطاج، كان قد بدأ منذ الاجتماع الذي تم بينه، وبين القائد القرطاجي صديربعل والقائد الروماني سكيبيو، وفشله في الصلح بينهما، وفي اقناع سكيبيو على التخلي عن فكرة نقل الحرب إلى شمال افريقيا، التي كان يدرك جيدا أن أثارها ستكون في حالة انتصار الرومان سلبية على المنطقة، وعلى مستقبل مملكته (Polybe, Histoire, 2003: XI, 24).

غير أن القائد الروماني سكيبيو لم يبال بذلك، فقد نقل الحرب الى شمال افريقيا، حيث نزلت الجيوش الرومانية بالقرب من رأس أبولون (Appolon)، وهو ما يعرف حاليا "برأس سيدي علي المكي" شرقي تونس، ثم حاصرت بعد ذلك أوتيكا (غانم، 1995: 66).

هكذا، فقد أقحم النوميديين في الصراع القرطاجي الروماني بطريقة مباشرة مرة أخرى، ذلك عن طريق سياسة التحالفات التي عُرف بها كل من القرطاجيين والرومان، فنجحت كل قوة من القوتين المتصارعتين في ايجاد حليفا مناسبا لها في المنطقة التي سينتقل اليها الصراع.

3. تركيبة الجيش النوميدي وخصائصه

كانت القوة العسكرية مكّملة ومدعمة لسلطة الملوك النوميديين، وكان هناك انسجام كبير بين المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية، هذه الأخيرة التي ساهمت في تفعيل القرار السياسي النوميدي سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، فمنذ نشأة الممالك النوميديّة وهي تسعى الى تطوير جيشها وتنظيمه وهيكلته وتجهيزه بمختلف المعدات الحربية ليكون قادرا على مجابهة القوى العسكرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، لا سيما أنها كانت تجاور الدولة القرطاجية من جهة والدولة الرومانية من جهة أخرى المتنازعتان عن السيادة، وقد كان الجيش النوميدي مشارك في تلك الأحداث بما يخدم مصلحته، فقد شارك جيش الملك غايا القرطاجيين في حروبهم بإسبانيا وكان ابنه ماسينيسا قائدا لإحدى الفرق النوميديّة هناك كما سبق أن ذكرنا.

لما اعتلى ماسينيسا عرش نوميديا كان يدرك جيدا أن القضاء على منافسيه وابعاد الخطر الخارجي لا يتأتى الا بجيش قوي ومهيكل، لذلك أولى اهتماما بالغا بتجنيد النوميدي وتدريبهم على النظام وتطوير المعدات العسكرية للجيش، غير أن ذلك لا ينفي وجود جيش نوميدي متزامن مع الذي أسسه غايا وماسينيسا وهو جيش الملك سيفاكس الذي نظمه للدفاع عن مملكته، فتحالف في بداية الأمر مع الرومان ضد القرطاجيين في شبه الجزيرة الإيبيرية قبل عام 213 قبل الميلاد فدرهمهم على اتباع الراية حتى لا يخل بالنظام، كما قسم فيلق مشاته الى عدة فرق (باحمان، 2021: 94).

كانت وحدات الجيش النوميدي تتشكل من الجيش الدائم الذي كان يسهر على حماية الملك ومختلف المواقع، ومن خاصية هذا الجيش أنه يستخدم أدوات الحصار والفيلة في معارك السهول (حارش، 1995:

(113)، ويوزع في وحدات يقودها ضباط يقومون بتدريبهم من ذوي الخبرة في الحروب، ويستعين بهم في الحملات الضرورية للقضاء على الفتن، كما يرسلها كفرق مساعدة لخدمة قرطاج أو روما عندما تطلب مساعدته، ينقسم هذا الجيش الى الفرسان والمشاة، ويلاحظ ارتفاع نسبة الفرسان في هذا الجيش، يتميزون بخبرة عالية في ركوب الخيل والتحكم فيها رغم السرعة التي تتميز بها هذه الأخيرة (باحمان، 2021:96).

أما المشاة فقد تميزت بالحرفية في استخدام الأسلحة وخاصة أسلحة الرمي كالسهام والمقاليع والرمح الطويلة، وتنقسم هذه الفرقة بدورها الى المشاة الخفيفة التي تُستخدم لغرض فرض الأمن، تتميز بالسرعة وعدم الارتباط بالأمتعة الثقيلة، يحاربون بالرمح القصيرة وبأسلحة خفيفة ويقومون بهجمات خاطفة، تُحدث شرخا وانشقا في قوات العدو، كانوا يحمون أجسادهم بدروع من الجلد وهي مستديرة أو بيضاوية الشكل التي تعتبر أسلحة دفاعية بامتياز، وقد أثبتت هذه القوات الخفيفة لمدة طويلة فعاليتها سواء على المستوى المحلي أم على المستوى الخارجي في الجيوش الوطنية، أو الأجنبية كالقرطاجية والرومانية(نفاري وكاكي، 2021: 30، 31). أما المشاة الثقيلة، فهي كثيرة العدد ومجهزة بأحسن المعدات الحربية (باحمان، 2021: 97-98). اعتمد النوميديون في حروبهم كذلك على وحدات الاحتياط التي كانت تُجند عند اندلاع الحرب وتُسرح بمجرد انتهائها، أما المرتزقة فيبدو أنها استعملت فيما بعد في جيوش يوغرطة ويوبا الأول(حارش، 1995:113).

4. جاهزية جيش النوميدي ودوره في الحرب

اعتمد القرطاجيون على جنود المرتزقة في صراعاتهم ضد أعدائهم بشكل كبير، وقد ذُكروا لأول مرة سنة 480 ق.م، بمناسبة الحملة الكبرى على صقلية التي قادها أحد أبناء ماغون، وقد كان معظمهم من الليبيين الذين أضحت جمهورية قرطاج تجندهم من المناطق الليبية التي استولت عليها، إثر السياسة التوسعية التي لجأت إليها بعد انهزامها في معركة هميرا (Himère) (Gsell, 1918: 344-345)، وبذلك أصبح الليبيون المصدر الأساسي في جيوش القرطاجيين، واعتمدوا عليهم في حروبهم ضد أعدائهم الاغريق، ثم الرومان في الحروب البونية، خاصة في مرحلتها الثانية التي برز فيها القائد حنبعل.

1.4. في إيطاليا:

أكدت معظم المصادر الكتابية القديمة وعلى رأسها بوليبيوس وتيت ليف أن القائد حنبعل جند أعدادا كبيرة من النوميديين في جيشه، فعندما نقل هذا الأخير الحرب من اسبانيا الى إيطاليا، كان على رأس جيش قوي أغلبيته من النوميدي، اذ يشير بوليبيوس الى حوالي اثنتي عشر ألف (12000) فارس افريقي، وذلك استنادا الى الأرقام التي قرأها هذا الأخير في نص منقوش عثر عليه في معبد جونو لاكلنيان (Junon Lacinienne) بالقرب من مدينة كروتون (Crotone) (Polybe, Histoire, 2003 : III,7) ، ورغم أن قزال يشك في صحة هذه الإحصائيات، ويرى أن العدد مبالغ فيه كثيرا(Gsell, 1918: 337-338)، إلا أن حضور النوميديين كان قويا.

يرجع فضل انتصار حنبعل في ضفاف نهر الرون الى براعة النوميديين في تنفيذ الخطة التي رسمها حنبعل والمتمثلة في تقسيم فرسانهم الى فرقتين، تتولى الفرقة الأولى مهمة مواجهة الجيش الروماني من الجهة الأمامية، في حين تقوم الفرقة الثانية بتطويق كتائب الرومان الثقيلة من الجهة الخلفية، وقد أكدت الفرسان النوميديية على مدى براعتها ومهارتها القتالية في هذه المعركة، وأبهرت القائد الروماني سكيبيو الذي اعترف بأنه لم ير في حياته من قبل فرسانا بمثل سرعة الفرسان النوميديية (نفاري وكاكي، 2021: 30، 31).

أطلق المؤرخ تيتوس ليفيوس في كتابه على جيش حنبعل اسم "جيش النوميدي"، لأنهم كانوا يشكلون أغلبية قواته في معركة تريبه (Tribie) التي كانت محسومة للطرف القرطاجي (Tite Live, Histoire, 1954: XXI, 57,5)، والتي ذاقت فيها الجيوش الأمرين، بسبب الثلوج وبرودة الطقس وقلة المؤونة، وقد اعتمد حنبعل على الفرسان النوميديين لاستدراج العدو (Gsell, 1920:153)، فيقول تيتوس ليفيوس في إحدى فقرات كتابه ما يلي: «إلى جانب ذلك، كان الرومان يشعرون بالقلق دائماً في أماكنهم الشتوية من قبل الفرسان النوميديين الذين كانوا يجوبون في كل مكان» (Tite Live, Histoire, 1954: XXI, 57,5)، ويتبين من هذه العبارة قوة ودهاء الجنود النوميديين الذين كانوا يُركبون العدو.

إضافة الى ذلك، فعندما تراجعت قوات القائد حنبعل في جنوب إيطاليا، وأصبحت هشة، تمكن من تلقي امدادات من افريقيا، قدرت بأربعة آلاف (4000) نوميدي وأربعين من الفيلة (دوكريه، 1993: 166). مما يدل على أن القرطاجيين اعتمدوا في كل جهات القتال على النوميديين الذين كانوا على استعداد وجاهزية.

حقق حنبعل أكبر انتصاراته بواسطة فرسان نوميديا الذين وصفهم قزال بأفضل وأحسن الفرسان، يتحملون الجوع والعطش وعدم النوم واعتبرهم من أفضل فرسان افريقيا، علاوة على استراتيجيتهم والرعب الذي يظهرونه في الهجوم والقتال، فيضيف قزال قائلاً: «كانوا يرتمون من كل جهة على العدو، ويهجمون راكضين، وهم يصيحون صيحات عنيفة، ويرسلون العديد من القذائف، وكانوا يتفادون المصادمة، بحيث إذا ثبت الآخرون فانهم يتفرقون، ويرجعون الى الخلف ليتسع المجال أمامهم، ثم يعودون بنفس الحماس وكأنهم زوبعة من النحل تُربك الخصم...» (كصيل، 2007: 267-268). ولا تتوقف سمعة الجيش في هذه الزاوية، بل تتعداها الى سرعة الحركة ومرواغاتهم الميدانية كما وصفها قزال «إن سرعتهم والسهولة التي يتحركون بها في كل ميدان، جعلت القائد حنبعل يضعهم في مقدمة الجيش، فكانوا يبرزون أمام العدو ويظهرون كأنهم سهاجمونهم، ثم يفرون ويعودون، فيجرونهم شيئاً فشيئاً الى المكان الذي يريد القائد أن يخوض فيه المعركة الحقيقية» (كصيل، 2007: 267-268).

2.4. في شمال افريقيا

نظراً لأهمية الجيوش النوميديية في الحرب البونية الثانية، تنافست كل من قرطاج وروما حول القادة والزعماء النوميديين كما ذكرنا سابقاً، وحاولت كل قوة استمالة الطرف المناسب لها، فتحالف

القائد صدربعل مع الملك سيفاكس الذي التحق بالجانب القرطاجي عام 204 ق.م، ويذكر المؤرخ تيتوس ليفيوس أنه كان على رأس خمسين ألف (50000) من المشاة ، وعشرة آلاف (10000) من الفرسان (Tite Live, Histoire, 1954 : XXX,7) بينما تحالف القائد الروماني سكيبيو مع ماسينيسا، فكان دور هذا الأخير في معركة السهول الكبرى هاما، حيث شارك بقوة قدرها مائتي (200) فارس (Polybe, Histoire, 2003 : XXX,37)، ضد أعدائه القرطاجيين وسيفاكس الذي تمكن من الإيقاع به والانتقام منه في معركة كيرتا أو "كرطن" الشهيرة التي حدثت سنة 203 ق.م، وبذلك دخل ماسينيسا كيرتا واتخذها عاصمة له، بعد أن سلّم سيفاكس كأسير حرب للقائد الروماني سكيبيو، ولقيت سفونسية حتفها (غانم، 1995: 82).

بعد ذلك طلبت قرطاج من حنبعل العودة من جنوب إيطاليا ليدافع عن وطنه، فنزل في صائفة 203 ق.م بلمطة، ومنها توجه الى حضرموت (Hadrumète) التي أعدّها للعدّة لمواجهة أعدائه (حارش، 1995: 69)، وجهر فيها جيشا قويا، متحالفا مع بعض الأمراء النوميديين المعادين لماسينيسا، فانظم اليه القائد مازيطول (Mazétule) الذي وضع تحت تصرفه ألف (1000) فارس، والأمير فرمينيا (Vérmina) ابن الملك سيفاكس، والقائد تيخايوس (Tychaios) أحد أفراد عائلة سيفاكس كذلك، والذي كان على رأس ألفي (2000) فارس، أما سكيبيو فقد تلقى امدادات من طرف قائد نوميدي يدعى دكماس (Dacamas)، ومن ماسينيسا الذي انضم اليه فيما بعد، حيث كان على رأس جيش قوي قُدر بأربعة آلاف (4000) فارس وستة آلاف (6000) من المشاة (Hadjadji, 2014 : 113)، وهكذا كانت معركة زاما الفاصلة في عام 202 ق.م التي تفوق فيها الرومان على حنبعل تفوقا كبيرا بفضل قوة ودهاء ماسينيسا وجنوده النوميديين (مهران، 1996: 278).

يتبين مما سبق، أن الأفارقة بصفة عامة والنوميديين بصفة خاصة، كان لهم دورا هاما بل حاسما في حرب حنبعل، فقد أكدت كل المصادر على اعتماد هذا الأخير على فرسان النوميديين بشكل كبير منذ بداية الحرب البونية الثانية، وسلك القرطاجيون في علاقتهم مع النوميديين سياسة مسك العصا من الوسط، بالتحالف مع الماسيل تارة، والمازيسيل تارة أخرى، فكان ذلك من بين الأسباب التي جعلت بعض حلفائها يتخلون عنها وينقلبون ضدها في كثير من الأحيان، وأكثر من ذلك يرتمي البعض منهم في أحضان أعدائها، وهو ما جعل قرطاج لقمة سائغة بالنسبة للرومان الذين دمروها عن آخرها عام 146 ق.م (غانم، 2005: 92)، وبسقوط قرطاج ونهاية الحروب البونية، أصبحت مملكة نوميديا مكشوفة أمام أطماع الرومان، وأضحى مصير قوتها وكيانها مهددا، فما هي الوضعية التي آل اليها الجيش النوميدي بعد الحرب؟

الخاتمة

على ضوء ما تقدم من تحليل حول دور الجيوش النوميديية في الكتابات اللاتينية، يمكننا أن نلخص إلى عدة ملاحظات أساسية تكشف عن الدور الذي لعبته الجيوش النوميديية في التاريخ القديم في منطقة الحوض المتوسطي منها:

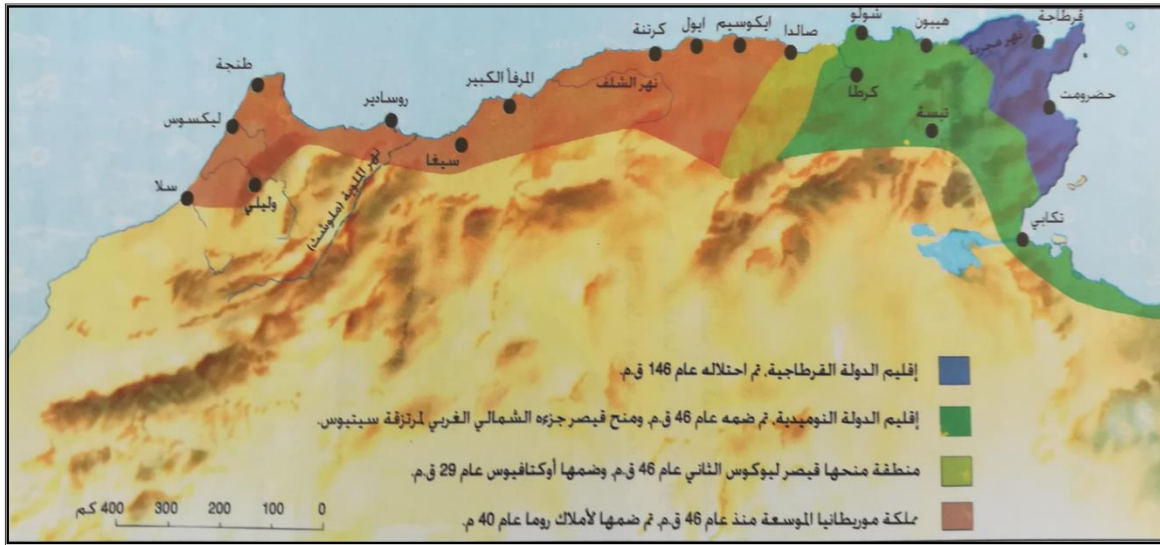
إقحام النوميديين في الصراع القرطاجي الروماني، أو ما عرف عند المؤرخين "بحرب حنبعل" رغما عنهم، حيث سعى كل من الرومان والقرطاجيين الى استمالتهم وجعلهم طرفا في هذا الصراع، ذلك

بالتحالف مع النوميديين الشرقيين عن طريق غايا وابنه ماسينيسا تارة، أو مع النوميديين الغربيين عن طريق الملك سيفاكس تارة أخرى، معتمدين في ذلك على كل الأساليب كالتأمر حيناً، والاعراء حيناً آخر، وهو ما ساهم كثيراً في اتساع الهوة والاختلاف بين الأفارقة.

سعت الممالك النوميديّة منذ نشأتها الى تطوير جيشها وتنظيمه وتجهيزه بالمعدات الحربية، حتى أصبح من أقوى الجيوش في شمال افريقيا، أبهرت المؤرخين القدامى والمحدثين. وقد تنافست القوتين المتنازعتين قرطاج والرومان حوله.

كان دور الجيوش النوميديّة حاسماً وفاضلاً في الحرب البونوية الثانية، فقد جند القائد القرطاجي حنبعل منها أعداداً كبيرة واعتمد عليها في حربه ضد أعدائه الرومان، وتمكن من تحقيق انتصارات على الرومان في معاركه الأولى، لكن لما تراجع قواته في جنوب إيطاليا، اغتنم القائد الروماني سكيبيو الفرصة وتحالف مع ماسينيسا الذي لعبت جيوشه دوراً حاسماً وفاضلاً في معركة زاما الشهيرة فتفوق الرومان على قرطاج في الحرب البونوية الثانية.

أدرك الملوك النوميديين أنهم لن يتمكنوا من ابعاد الخطر الروماني المحقق بمملكتهم، وحماية وحدتها وكيانها السياسي، الا عن طريق جيش نظامي محترف، هذا ما دفع يوغرطة ويوبا الأول فيما بعد الى انشاء جيش قوي لمحاربة الرومان.



شكل 01: سياسة التدرج التي اعتمد عليها الرومان في ضم الأقاليم في شمال افريقيا ابتداء من عام 146 ق.م
عن: (شنيقي، 2011: 207)

1. CAMPS, G. (1987), *Les berbères mémoires et identité*, éd. Errance Paris.
2. DECRET, F. Fantar, MH. (1981), *L'Afrique du nord dans l'antiquité des Origines au Ve siècle*, Paris, éd. Payot.
3. FERROUKHI, M. (2009), *Nos ancêtres les rois numides*, éd. Dalimen.
4. GSELL, S. (1918), *Histoire ancienne de l'Afrique du nord*, T2, Paris, éd. Hachette.
5. GSELL, S. (1920), *Histoire ancienne de l'Afrique du nord*, T 3, Paris, éd. Hachette.
6. KADRA-HADJADJI, H. (2014), *Massinissa le grand africain*, Alger, éd. Casbah.
7. LANCEL, S. (2014), *l'Algérie antique de Massinissa à Saint-Augustin*, Paris, Éd. Places des victoires.